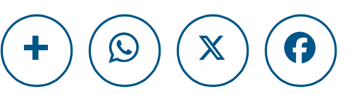
‘قصر شمعايا’ للروائي السوري علي الكردي: هوى الأقليات بين القاتل والمقتول

8 - مارس - 2010

sssناظم السيدsssppبيروت- ‘القدس العربي’ تجري أحداث رواية ‘قصر شمعايا’ للروائي السوري علي الكردي والصادرة عن ‘دار كنعان’، تجري في كانتون مغلق هو قصر اليهودي شمعايا أفندي والذي بني سنة 1865، وقد تركه أصحابه إثر حرب سنة 1948، فتم تسجيله ضمن أملاك اليهود الغائبين. بعد هجرة أصحابه تحوّل القصر إلى سكن للعائلات الفلسطينية التي هربت من فلسطين بعد النكبة. عائلات عديدة توزّعت غرف هذا القصر، لكل عائلة غرفة احدة. لاحقاً راحت عائلات تتوسّع بضم مساحات من الفناء إلى غرفتها. هكذا تحول القصر إلى مخيم وإن لم ترد هذه اللفظة حرفياً في الرواية. ترهل القصر والنفايات التي تتراكم من حين إلى آخر وتربية المواشي في بعض جوانب القصر وتعطل الصرف الصحي أحياناً، أحداث ومظاهر جعلت القصر مخيماً مكتظاً بالبشر والمآسي معاً.pppخجل الأقلياتالرواية التي تدور أحداثها بعيد نكبة 1948 في قصر شمعايا الدمشقي، تتخذ من هذا المكان ذريعة للحديث عن التنوّع الطائفي والديني في محيط القصر، أي في حارات دمشق القديمة حيث باب توما وباب شرقي. هنا أقلية يهودية لا يزال بعض أبنائها يعيشون ويتناقصون يومياً، وأقلية شيعية مع أقلية سنية وأقلية مسيحية، إضافة إلى الفلسطينيين الذين وفدوا إلى دمشق معاً وتباعاً. هنا في هذه المساحة الصغيرة من دمشق يغدو الجميع أقليات. لا أكثريات في دمشق القديمة. الجميع يعيش كأقلية محكوماً بعاداته وتقاليده ومطلاً على عادات وتقاليد الآخر. الأقليات في محيط قصر شمعايا تتعايش معاً لكنها في الوقت نفسه تنغلق على نفسها. قد تكون الرواية رمت إلى هذا

التنوع والخليط اللذين يشكلان فسيفساء الشام القديمة. لكن هذا التعيش وهذا الخليط لم يلغ خصوصية كل أقلية ولم يُزل حدوداً أقامتها كل واحدة من هذه الأقليات لنفسها. هنا الخوف من الآخر والحذر منه. هنا الخجل من الآخر واحترام حدوده. هنا التلصص على الآخر والتشبّه به. هنا مداراة الآخر وحفظ جيرته. هنا الصراع المستتر مع الآخر والوقوع في غرامه. هنا تداخل يقطعه انفصال، واتصال يعكره انغلاق. ذلك أن قصر شمعايا الواقع في وسط دمشق القديمة والذي يؤوي عائلات فلسطينية، ليس سوى رمز للعيش المنكفئ من جهة وللإطلالة على المحيط الشبيه أو المختلف من جهة أخرى. إذن، تدور أحداث رواية 'قصر شمعايا' في سورية. مع ذلك يمكن القول إن السرد قلما يفارق هذه المنطقة الصغيرة من سورية. صوت الراوي الذي ما ان يخرج إلى أمكنة ومطارح وأحداث خارج سورية حتى يعود إلى هذا المكان الضيق. ثمة إحساس بأن الراوي ضيف في هذه الرواية. إنه الراوي الفلسطيني الذي يروي فلسطينيته معزولة عن البلد المضيف نظاماً وسياسة وأحداثاً كبرى (زمن الرواية ما قبل حكم الرئيس حافظ الأسد مطلع السبعينات). الرواية التي تطال نسيجاً اجتماعياً وقضايا كبرى مثل القضية الفلسطينية تقفز فجأة على السياسة. لا بأس. هذا خيار. الرواية السياسية العربية سابقاً بدت أقرب إلى الشعار في إعلائها السياسي على الحياتي. مع ذلك أحسب أن الراوي في 'قصر شمعايا' تكلم عن قضايا سياسية بلا سياسية. الوقائع اليومية للناس تبدو هنا محمولة على نفسها وليس على بنية سياسية صانعة ومؤثرة. لنقل إنها رواية وطنية أكثر منها سياسية.الجلوس مكان العدوتروي 'قصر شمعايا' مصائر بشر عاشوا في القصر الذي يحمل اسم الرواية وفي محيطه. فلسطينيون التحقوا بصفوف الفدائيين فسجن بعضهم واستشهد بعضهم الآخر، آخرون هاجروا إلى دول عربية خليجية أو إلى دول غربية، يهود هاجروا إلى إسرائيل حيث تحول بعضهم إلى جنود في الجيش الإسرائيلي وآخرون آثروا الهجرة إلى أوروبا أو الولايات المتحدة الأميركية. بهذا المعنى تبحث الرواية في مشتركات

كثيرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين. الفلسطيني احتل قصراً يهودياً مقابل احتلال اليهود أرضاً كاملة. الفلسطينيون واليهود مقتلعون من أراضيهم. الفلسطينيون واليهود العرب اشتركوا في الهجرة إلى خارج أراضيهم. الفلسطينيون واليهود خافوا بعضهم من بعض وعشق بعضهم بعضاً لدرجة أن الرواية تتحدث عن انتحار شاب فلسطيني وشابة يهودية منعهما أهلهما من الزواج. ثمة أدوار عديدة يتبادلها الفلسطينيون واليهود في هذا التيه الكبير والمشترك.'قصر شمعايا' على تناولها هذا التبادل في الأدوار بين الفلسطينيين واليهود، وعلى رصدها مصائر أفراد وجماعات، إلا أن عصب الرواية يقع في عنوانها: قصر شمعايا. بطل الرواية هو القصر وليس الفلسطينيين واليهود. أحسب أن الأشخاص هنا ذريعة لقص المكان. نحن أمام رواية بطلها المكان. إنها رواية تختزل نسيجاً اجتماعياً (وأحياناً سياسياً) على غرار روايات عربية مثل ثلاثية نجيب محفوظ: 'السكرية' و'قصر الشوق' و'بين القصرين' ومجمل أعماله الأخرى مثل 'زقاق المدق' و'ثرثرة فوق النيل'، أو رواية 'عمارة يعقوبيان' لعلاء الأسواني، أو رواية 'طيران فوق عش الوقواق' لكين كيسي.يبقى أن الرواية التي شابتها أخطاء نحوية في غير مكان، وقعت أحياناً في الخطابية، على شيء من الإنشائية في اللغة والتعبيرات الجاهزة هنا وهناك.qd



اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *